زغاريد

تأمّلات رحلة بحثيّة عن المزغردات

سالي حلبي

زغاريد - تأملات رحلة بحثية عن المزغردات هو نتاج مشروع وبحث فني.
أجرى البحث سالي شلبي ويامن عمر
الكتابة: سالي شلبي
مراجعة النص: يامن عمر
التحرير: هبة أمارة
التصميم: ماريان ساحوري
رسم الغلاف والعناوين: يزن ست أبوها

الطبعة الأولى: حزيران 2022

للاتصال: سالي شلبي
ص.ب 9777
عمّان 11191
الأردن
الهاتف: 776128427 (0) 962+
البريد الإلكتروني: hakawatieh@gmail.com

أنجز هذا البحث بدعم من برنامج «البحوث حول الفنون» (الدورة الثالثة 2021-2022) الممول من قبل الصندوق العربي للثقافة والفنون والمجلس العربي للعلوم الاجتماعية من خلال منحة من مؤسسة أندرو و. ميلون.

الآراء الواردة في هذا المنتج هي لأصحابها ولا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلس العربي للعلوم الاجتماعية.

يُسمح باستخدام هذا البحث والمواد الواردة في هذا الكتيب لأي مشروع أو نشاط غير ربحي، شريطة ذكر المصدر والناشر.

ISBN 978-9923-00-277-3

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2022/3/1545)

398.209565
شلبي، سالي محمد
زغاريد: تأملات رحلة بحثية عن المزغردات / سالي محمد شلبي.
عمان: المؤلف. 2022

( )ص.
ر.إ. : 2022/3/1545
المواصفات: الفولكلور // الهوية الثقافية // الأردن/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

زغاريد

تأمّلات رحلة بحثيّة عن المزغردات

7 قصة البحث

مقدمة زغاريد: عن البحث والدوافع والمنهجية

15 قصة المهاهاة

تاريخ وتعريف وفروقات محلية ومجتمعية

23 قصة البدّاعة

الهوية والمضمون واللغة والجندر والطبقة الاجتماعية

35 قصة اليوم

التدوين والأرشفة وما يحدث للممارسة الحية والامتهان

47 قصة التأملات

التعلّم وتأملات في إعادة إنتاج وممارسة المهاهاة والمستقبل

55 شكر وتقدير

61 قائمة المراجع

65 عن الباحثَين

قصّة البحث

مقدمة زغاريد:
عن البحث والدوافع والمنهجية

حينما تلمع آذاننا ونسمع صوت امرأة تزغرد، نعرف أن هناك حدثًا مهمًا في الجوار. وعندما نسمع أشطُر مهاهاتها، نعرف سبب زغردتها وماذا وراء احتفالها. تلك الأبيات المغنّاة، والمعروفة بالزغاريد أو المهاهاة، هي إحدى مفاتيح طقوس حياتنا هنا في منطقة بلاد الشام ومراسمها المختلفة. تُعتبر الأعراس أشهر هذه المراسم، إلّا أن الزغاريد حاضرةٌ في حياتنا اليومية وفعالياتها الاجتماعية المختلفة، مثل الولادة، وبناء بيت جديد، أو الاحتفال بالشهادات العلمية والسفر، أو حتى المقاومة والحرب وتوابعها، وجميع تلك الاحتفالات والمناسبات تزهو بصوت الزغاريد. ولكننا نلاحظ اليوم خبوّ هذه الممارسة، وانخفاضًا في عدد من يتقنّها ويمارسنها إلى حدّ التلاشي، وانحدارًا في مستوى المضمون، لتتشكّل فجوة بين جيلين يميّزها الفقدان لتلك الممارسة.

أذكر عرس ابنة خالتي الذي أقيم قبل عشرة سنوات، وكان الاحتفال في إحدى صالات فنادق عمّان الفاخرة. وأذكر حين دخل العروسان القاعة، انتظرتُ لأسمع الصوت المعهود الذي يرافق مثل تلك اللحظة في الأعراس، ولكن لم يزغرد أحد، ولم يُسمع في القاعة سوى صوت الموسيقى الكلاسيكية يعلو من السماعات (مكبّرات الصوت)! وقفت أنا وزغردتُ حينها بأعلى صوتي. كانت زغرودتي هي الوحيدة، إذ لم ينضم إليّ أيٌ من خالاتي وأقربائي في الزغرودة، حيث يُعاب على أم العروس وأهل العروس من النساء، وبالأخص الكبار منهن، أن يظهرن أي علامات فرح، كما لم يكن أيٌ من جيلي في عائلتنا تتقن الزغردة، ولا أدري لمَ لم يزغرد أحد من أهل العريس، فهممت بزغرودة تلو الأخرى، وحدي، حتى وصلَ العروسان إلى وسط القاعة.

كان شعوري آنذاك، وأنا أقف داخل القاعة الضخمة تحت سقفها المرتفع، أن الصوت هزيل وضعيف، ولاحقتني منذ ذلك الوقت فكرة أن الزغرودة بحاجة إلى أصواتٍ عديدة كي تُبهج وتعلو. وقلت لنفسي حينها إنني بحاجة إلى حفظ المهاهات المختلفة، حتى حين أحضر عرسًا آخر لا تحضره نسوة من الجيل الأكبر ممن يهاهين، فأكون أنا من تقوم بذلك. ولكني تقاعست عن حفظ المهاهات والزغاريد، وانغمست في حفظ القصص، لأجد نفسي بعد عدة سنوات أعود إلى هذا الموروث الشفوي النسوي مرة أخرى، وأسأل نفسي: ماذا حدث للزغاريد والمزغِردات؟ بدأت بالبحث عن الزغاريد لحفظها ، فانتقلت من كتاب إلى آخر، لأجد نفسي أغوص في عالم أكبر من أربع أشطُر مغنّاة، وأسأل نفسي أسئلة أخرى.

من هنا بدأ بحثنا في عالم الزغرودة، المهاهاة، الهلهولة، والذي يتساءل ويبحث عن ممارسات هذا الفن ومن هنّ، وكيف يكون انتقال الزغاريد من جيل إلى آخر، وإن لم يتم نقلها، فلماذا؟ وبالنسبة لما يُزغرَد، هل هناك فروقات أو مقاربات محلية بين مكان وآخر، من حيث المحتوى والأداء؟ وهل للمكان الجغرافي والتكوين الطبقي والاجتماعي للمزغرِدات تأثير على ممارسة الزغردة؟ لطالما كانت المجتمعات في السابق تغنّي وتلقي الأغاني والأشعار والمهاهاة في مناسباتها المختلفة، ولكن مع ظهور تكنولوجيا التسجيل وبثّ الموسيقى، أخذ المحكيّ والمُغنّى يتلاشى، حتى أصبح بعض تلك الممارسات يوصف بأنه فلوكلور، ليعود إلى المقعد الأخير، متراجعًا عن ساحات الاحتفال والمناسبات لتغزوها الأنماط الحديثة.

تكثر الزغاريد في الأعراس، وتحديدًا في الزفّة. وكان لكل طقسٍ في احتفال العرس زغاريده الخاصة، مثل: الحنّة والحمّام ووصول العروس إلى البيت الجديد، وغيرها من اللحظات التي تُكلّل بالزغاريد والمهاهات التي تعبّر عن روح الحدث ومضمونه ضمن الاحتفال. وكانت الزغاريد تغنّى من أفواه نساء حفظنها ونقلنها عن نساء أخريات، كنّ قد غنينها في مناسبات شبيهة. ولكننا اليوم نرى أن كثيرًا من أحداث العرس وطقوسه تُقام من خلال أشخاص ممتهنين لتنفيذ هذه الطقوس، مثل فرق الزفّات، والدي - جي (DJ)، فخلت الساحة من النساء اللواتي يزغردن، وصفّر مخزون الزغاريد المستخدمة، ما أدى إلى انكماش هذه المساحة النسائية الأدائية العامة وضمورها، فقلّ نتيجة ذلك عدد الحافظات والذاكرات للزغاريد.

ومع أن الكثير من الزغاريد دُوّن وأُرشف، نلاحظ أنها لا تُحفظ كما كانت في الذاكرة من قبل، ولا تُستخدم وتُمرر من جيل إلى جيل كما في السابق. فنرى اليوم الجيل الأصغر يستخدم التكنولوجيا والإنترنت والموسيقى الحديثة، عوضًا عن الغناء الذاتي أو ممارسة التقاليد والطقوس كما كان جيل آباءه وأجداده. وبناءً عليه، فقدنا أقوى وأهم طرق انتقال هذا الموروث الشفوي بين الأجيال، وهي الممارسة الحيّة ضمن المناسبات العائلية والمجتمعية. فنرى اليوم الجيل الجديد يحمل هواتفه النقالة ليقرأ منها الزغاريد، ومن الممكن أنهم بحثوا عنها مسبقًا، أو في لحظتها، وقد يستسهلون أول ما يجدون، فيزغردون ما وثّق أو نُقل بهذه الطريقة. وإن كانوا محظوظين يسألون كبيرات السن في عائلتهم، ويدونونها ليقرأونها في المناسبة ويزغردوا بها.

دوّن الزغاريد باحثون في الفولكلور ليكون سهلًا إيجادها في الكتب الخاصة بها، وفي بعض التسجيلات من المناسبات والأعراس. وإن أمعنّا النظر في تلك الكتب، نجد أن معظم ما دُوّن هو قوائم من الزغاريد جُمعت وصُنّفت بحسب الموقف أو الشخص المزغرد له/لها، وفي الغالب يكون الوصف في تلك القوائم - إن وُجد - لطقوس العرس والعادات والتقاليد المصاحبة له، أو تفسيرًا للمصطلحات العامية. ونجد أن معظم الكتب كانت معنية بزغاريد مكان محدد، سواء كانت فلسطين البلد، أو قرى ومدن فيه أو خارجه، مثل بيت لحم أو بيت صفافا؛ أو الشام (دمشق)... إلخ. وعند تصفّح هذه الكتب، تكشّفت لنا محدوديتها من حيث الوصف والتدقيق، فتكاد تخلو من أي تحليل أو مقارنة بين ما هو مدني أو فلاحي؛ قديم أو جديد؛ اجتماعي أو سياسي. كما انكشف لنا تشابه كبير بين الزغاريد في الأماكن المختلفة، إلى حدّ تطابقها في بعض الأحيان، ولكن دون مقارنة أو مقاربات لهذا التشابه. وفي مستوى آخر، عند تدقيق تلك الكتب الجامعة للزغاريد، وحين نقصد تتبع زغاريد في مكان محدد مثلًا، نلحظ غياب أي تحليل أو دراسة في ما يتعلّق بتقاطعات المكان والهوية والمحتوى في تلك الزغاريد، فتقتصر الإشارة بشكل مسطّح إلى الموقع الجغرافي دون رؤية الأبعاد الأخرى لتلك الأماكن وتلك الزغاريد.

لذا، فإن هذا المشروع البحثي، «زغاريد»، يطمح لأخذ هذه الرؤية التقاطعية عن الزغرودة ومغنيّاتها، وبناء تحليل ومقارنة لطرق انتقال وغناء الزغرودة ومحتواها وتطوّرها عبر الأجيال، وما كانت التأثيرات في هذه الممارسة، ليس خلال عبورها من جيل إلى آخر فحسب، بل في عبورها المساحات الجغرافية والسياسية والهويات المختلفة، والبيئة التي تزهو بها. ومن الأسئلة التي سيتطرّق إليها البحث:

1. هل هناك فروقات بين الزغاريد المغنّاة في مناطق مختلفة في الأردن؟ وإن كانت هناك فروقات، ما هي العوامل التي أثرت في تلك الزغاريد؟
2. من هنّ مغنّيات الزغاريد، وكيف حفظنها؟
3. ماذا يقلن عندما يزغردن؟
4. هل تتغيّر وتتطوّر الزغاريد؟ وإن كانت كذلك، فكيف يكون هذا التغيير أو التطوّر؟
5. كيف ننقل الزغرودة اليوم؟
6. هل بإمكان الجيل الجديد أن يصبح حافظًا لهذا الموروث الشفوي النسائي، وكيف؟

يمضي البحث في ثلاثة مسارب:

الأول البحث المكتبي المعنيّ بمراجعة الأدبيّات ذات الصلة بالزغاريد وبدراسات الفولكلور والموروث الشفوي.

الثاني البحث الميداني الذي سيّجرى في أربعة مواقع في الأردن: أم قيس والمنصورة في شمال الأردن والسياق القروي الزراعي؛ مخيم النصر وسياق مخيمات اللجوء الفلسطيني؛ الكرك في جنوب الأردن والسياق البدوي والعشائري؛ ومدينة عمّان والسياق المدني.

الثالث مجموعات قراءة ولقاءات بحثية ستعمل على مراجعة البحث وعرضه ومناقشته في مجموعات صغيرة، وأحيانًا في لقاءات فردية مع أشخاص من تخصّصات مختلفة وذوي صلة مع البحث من أكاديميين وباحثين ومنتجين في مضامير الموروث الشفوي والتاريخ الشفوي والفولكلور، وأبحاث الجندر وإنتاج المواد الثقافية وغيرها.

يعتمد نهجنا في البحث الميداني على طرق تفعيل الذاكرة من خلال تبادل القصص والتساؤلات، والإنصات في مجموعات من النساء، أو جلسات فردية تُعقد في بيوت النساء أو في مراكز مجتمعية، أو حتى أماكن عامة ترتاح فيها النساء. وسوف نستخدم ما هو المناسب من أساليب فنية وأدائية، من زغردة وسرد حكايات وغناء ورقص، لحثّهن على الحديث والحوار في قصصهن وطقوسهن وزغاريدهن، بهدف الخروج من قالب المقابلة والدخول إلى أجواء عفوية ومريحة أكثر، بحيث يتناسب هذا الأسلوب مع المادة والموضوع بشكل أكبر؛ فالزغاريد وما حولها كائن حيّ، طقسًا وممارسة، وسنظلّ نطوّر ونطوّع أسلوب البحث بحيث يلائم الأشخاص والأماكن والسياق خلال رحلتنا البحثية.

نطمح بنشر هذا الكتّيب توثيق هذه الرحلة من خلال التأملات والتساؤلات التي نتجت عن البحث والجلسات والمشاهدات التي وجدناها في مشوارنا، فنخوض معًا رحلة في عالم الزغاريد والمزغردات. ونتمنى أن تجدوا في هذا الكتّيب ما يثير فضولكم ويمتعكم ويزيد معرفتكم عمّا يحدث اليوم في هذا الموروث الشفوي الشعبي النسائي.